مركز الجزيرة للدراسات
ALJAZEERA CENTER FOR STUDIES

ملتقى مركز الجزيرة للدراسات حول

العلاقات العربية الروسية

فبراير / شباط 2009

ابتسامة العبوس في فجر العلاقة بين العرب و الروس

ديميتري ميكولسكي

مستشرق ومؤرخ مختص في شؤون الشرق الأوسط

شبكة الجزيرة
ALJAZEERA NETWORK

Al Jazeera Centre For Studies
PO BOX 23123 – Doha, Qatar
Tel: +974 4930181
Fax: +974 4831346
E-mail: jcforstudies@aljazeera.net

مركـز الجزيرة للدراسـات
ص. ب. 23123 – الدوحة، قطر
هاتف: 4930181 974+
فاكس: 4831346 974+
بريد إلكتروني: jcforstudies@aljazeera.net

في ملتقى الشهرين العاشر والحادي عشر من العام الماضي تسنت لي فرصة زيارة مصر بصفتي مشاركا في ندوة علمية. وبعد اختتام أعمال الندوة سافرنا إلى أسوان وهناك نزلنا من على متن مركب إلى الأقصر مشاهدين الآثار المصرية العريقة. وفي مدينة الأقصر المزدهرة دخلت محلّة من محلّات الهدايا التذكارية واثناء البيع والشراء أخذت أتحاور مع صاحب المحلّ. لقد تبيّن أنّه إنسان محترم منتم إلى سلالة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم من طرف الحسن بن عليّ رضي الله عنهما، أي أنه من أبناء طائفة الحواسنة. بالإضافة إلى ذلك فإن من أجداده وليّ من أولياء الله المشهورين في صعيد مصر أبي الحجّاج الذي يقع ضريحه بين أنقاض معبد الأقصر الشهير. هذا وعرفت من حديثنا ذي الشجون أنّ الأسطى حسّان، وهذا اسم صحابي، قد توارث مهنة نقش الأحجار من أسلافه إلى جانب شغفه بالعلم والأدب العربيّ الإسلاميّ التقليديّ شأنه شأن الكثيرين من أبناء الصعيد من أمثال رفاعة رافع الطهطاوي وطه حسين وغيرهما. وقد أخبرني هذا المرء الشريف، وهو من أبناء الستّين والنيّف، أنّه في أيّام شبابه، وذلك أيّام حرب 1973 المجيدة كان يخدم في البحريّة المصريّة وأنّه كانت تتواجد في نفس السفينة مجموعة من الخبراء السوفيت (أي الروس) الّذين كانوا يعلّمون البحّارة المصريّين العرب استعمال مختلف الأجهزة والمعدّات الحربيّة البحريّة لمناهضة العدوّ الصهيونيّ. ويعتقد الأسطى حسّان أنّ الانتصار على العدوّ قد أُحرز لدرجة كبيرة بسبب المعونة والتأييد الروسيّين. في رأيي يمكن أن يكرّر مثل هذا الكلام أيّ مُشاهد عربيّ لتلك الأيّام الانتصاريّة.

وفي الشهر العاشر من سنة 2000 شاء القضاء والقدر أن أصل إلى بغداد النازفة دما في مخالب الحصار الأمريكيّ الوحشيّ. وأثناء ترحالي في شوارع مدينة السلام استدعت الضرورة أن آخذ سيّارة الأجرة للعودة إلى الفندق الذي كنت نازلا فيه. وعندما علم السائق بأنّني آت من روسيا قدّم نفسه باعتباره جنديّ الصاعقة المستقيل ومقاتلا في الحرب العراقيّة الإيرانية. وقد أخبرني ببالغ الاعتزاز بأنّ الذين كانوا قد درّبوه كانوا من خبراء الصاعقة الروس (يعني السوفيت). وعندما أوصلني صاحبي البغداديّ إلى محلّ إقامتي رفض أن يتقاضي الأجرة المستحقة رفضا باتّا.

هذا وبعد انصرام سنتين على ذلك استدعيت لإلقاء محاضرة في أصول الحضارة الروسيّة، وذلك في عمّان عاصمة الأردنّ. وكانت أغلبيّة الجمهور الذي كانت القاعة المخصّصة لمداخلتي مكتظّة بهم من خرّيجي المؤسّسات التعليميّة السوفيتية. فقد أتوا محاضرتي ليرحّبوا بي باعتباري ابنا للدولة العظيمة التي كانوا قد قضوا في ربوعها أوقات عنفوان شبابهم. ذلك وتأسّفوا أشدّ التأسّف على ضرورة مغادرتي لبلادهم ليلة إلقاء المحاضرة. وطبعا بإمكاني أن أزيد من نماذج هذه الأمثال المعبّرة عن خالص الصداقة والودّ اللذين يكنّهما جلّ العرب للبلاد الروسيّة وشعبها. انّه فعلا ميراث جبّار تركنا إيّاه سلفنا منذ قرون.

تعود العلاقات العربيّة الروسيّة إلى ضحى تأريخ الروس وروسيا. ومن المعروف انّه بعد تحقيق الانتصارات والفتوح العظيمة في بلاد الشام فقد التحق العرب بالثغور الحدوديّة الروميّة (أي البيزنطية) وقد وجدوا هناك حرّاسا مدافعين عن القلاع الروميّة. ولم يكونوا من أصل روميّ (أي يونانيّ)، بل وكانوا منتمين إلى شعب غير معروف للعرب آنذاك، إنه شعب الروس. حيث كان يعتقد المؤرخ العربيّ المشهور للقرن العاشر الميلاديّ المسعوديّ أنّ كلمة (الروس) تعني (الحُمر) وانّ أبناء هذا الشعب كانوا يُطلقون على أنفسهم هذه التسمية لحُمر شعرهم.

وسّع العرب معارفهم عن أبناء الروس أثناء حروبهم مع الخزر، وكان ذلك في الغالب في منطقة جبال القوقاز.وكان أهمّ نوع من العلاقات التّي أقيمت بين العرب والروس في العصرين الأمويّ

والعبّاسيّ هو العلاقات التجاريّة. كما أخذ التجار العرب والمسلمون بصفة عامّة يقومون برحلاتهم عبر بلاد الروس والشعوب المجاورة لهم، وذلك من بحر الخزر والبحر الأسود (الذي كان العرب يسمّونه ببحر الروس) جنوبا إلى البحر البلطيّ شمالا ومن بلاد البلغار شرقا إلى المملكة البولونيّة غربا. وخير دليل على مدى عمق العلاقات التجاريّة القائمة بين العرب وبين الروس هو أنّ غالبيّة النقود النقديّة التّي كانت تُخبأ في الكنوز المعثور عليها في أراضى روسيا هي الدنانير والدراهم العربيّة. وكان التجّار العرب يأتون بلاد الروس بالأقمشة والمجوهرات والأسلحة وغيرها من التحف الحرفيّة الرفيعة الجدوى، وأمّا ما كانوا يجلبونه من بلاد الروس إلى الديار العربيّة فالفراء والعسل والكهرمان. وبدورهم كان التجّار الروس أيضا يشقّون سبلهم إلى الأوطان العربيّة الإسلاميّة ويصلون حتّى إلى بغداد.

لقد صارت الأقاصيص والحكايات التّي كان يسردها التجّار العرب بعد عودتهم من رحلاتهم أساسا للأخبار عن بلاد الروس خاصّة وأوربّا الشرقيّة عامّة التّي كان يوردها علماء الجغرافيا العرب المسلمون في مؤلّفاتهم. فمن فحول أوائل الجغرافيّين العرب الذين أوردوا معلومات وافية عن بلاد الروس الخوارزميّ وابن سرابيون والفرغانيّ والمسعوديّ والإدريسيّ والبطّانيّ. ويمكن القول إنّ أوّل أديب عربيّ قام برحلة إلى أوروبّا الشرقيّة وألف رسالة في أعقاب ذلك كان الفقيه أحمد بن عبّاس بن فضلان الذي صاحب الوفد الذي بعث به الخليفة العبّاسي المقتدر إلى ملك البلغار(وهم أجداد التتر المعاصرين) الذي كان قد طلب من أمير المؤمنين نجدة ضد الخزر ومعونة في سبيل تجديد إسلامه وإسلام رعيّته. وبعد عودة الوفد أورد ابن فضلان في رسالته معلومات مفصّلة عن الغوز الخزر والبلغار والروس، وذلك بالأسلوب الأدبيّ الواضح. وقد تُرجمت هذه الرسالة إلى اللغة الروسيّة سنة 1939 من قبل المستشرق الروسيّ كوفاليفسكي. وتُعتبر رسالة ابن فضلان من أهمّ المراجع في تأريخ الروس المبكّر. وقد اقتدي به فيما بعد أبو حميد الغرناطيّ.

وتجب الإشارة إلى أنّ الروس وغيرهم من الصقالبة أخذوا يشكّلون طائفة جسيمة من المماليك في البلاد الإسلاميّة وكان ذلك خاصّة في قصر الخلافة العبّاسيّة وبلاط الأغالبة وعند الفاطميّين. وفي أواخر القرن العاشر الميلاديّ كان المماليك الصقالبة والروس يؤلّفون طائفة كثيرة العدد وذات نفوذ لا يستهان به في بلاط الخلافة الأمويّة في قرطبة. وبالرغم من أنّ المماليك الروس والصقالبة قد تأثّروا بالثقافة العربيّة الإسلاميّة وألمّوا باللغة العربيّة فإنهم كانوا مع ذلك يحتفظون بالوعي الطائفيّ وحتّى باللغة الخاصّة بهم، ممّا ساعدهم على التلقّف والمشاركة الناجحة في الصراعات السياسيّة.

وبعد اعتناق المذهب الأرثوذكسي المسيحيّ من قبل الروس فقد توسّعت آفاقهم الثقافيّة وأخذ أبناء مختلف الطبقة الروسيّة يقومون برحلات إلى بلاد العرب. وكان مقصد الحجّاج الروس الأرثوذكس في أغلب الأحيان بيت المقدّس والأرض المقدّسة أي فلسطين. وبطبيعة الحال كانت الرحلات إلى أقاصي البلاد آنذاك طويلة وشاقة، لذا كان الحجّاج لا يأملون بالعودة سالمين إلى مساقط رؤوسهم. فكانوا يتركون منازلهم ويودّعون أهاليهم وكأنّ شملهم مشتّت إلى الأبد. أمّا أولائك الذين قد نالوا حظّهم وعادوا فكانوا عادة لا يرجعون إلى عيالهم بل ينضمّون إلى مجموعات من الحجّاج السابقين من أمثالهم ويطوفون في الآفاق هائمين على وجوههم ومنشدين ملاحم وكاسبين رزقهم الزهيد مقابل ذلك. ونجد في بعض هذه الملاحم المسجّلة من قبل علماء الفولكلور الروسيّ في القرن التاسع عشر وصف الرحلات إلى الأرض المقدّسة ووصف مدينة القدس وكيفيّة الغطس في نهر الأردن الذّي تُعتبر مياهه مقدّسة عند المسيحيّين. كما نجد في تلك الملاحم ذكر بعض البضائع المجلوبة من بلاد العرب "الذهب والنحاس العربيّان" و"الأقمشة العربيّة".

أمّا أوّل وصف للأرض المقدّسة قام به رجل متعلّم فقد حقّقه قيّم الدير دنيال الذي زار فلسطين في أوائل القرن الثاني عشر الميلاديّ أيّام تسلّط الصليبيّين الإفرنج الكاثوليك على الأراضي المقدّسة. حيث يصف دنيال معالم يافا والقدس ونهر الأردن والبحر الميّت ومدينة الناصرة. وقد تتميّزت رسالة دنيال قيّم الدير التي تحمل عنوان "الحجّة" بدقّة الوصف والتفاصيل وبهذا السبب يعتبر مرجعا هامّا يستفيد منه علماء الآثار والمؤرّخون المتخصّصون في تأريخ فلسطين وثقافتها.

من المعروف أنّه في النصف الأوّل من القرن الثالث عشر الميلادي تعرّضت البلاد والآفاق الكثيرة شرقا وغربا للغزو المغولي الفتّاك بما في ذلك شرقيّ الديار الإسلاميّة والعربيّة وأيضا البلاد الروسيّة. وبهذا السبب قد انقطعت لفترة ما العلاقات بين العالم العربيّ وروسيا. حيث يعود التقرير الروسيّ التالي عن الرحلة إلى الأرض المقدّسة إلى ملتقى القرنين الرابع عشر والخامس عشر. لقد ألّف تلك الرسالة الراهب يبيفانس.

وتتميّز الفترة التالية لتأريخ روسيا بنشوء وتطوّر الدولة الروسيّة المركزيّة. وفي تلك الظروف الجديدة كانت تتسنّى للروس إمكانيّات أكثر للقيام بالحجّ إلى الأرض المقدّسة خاصّة وإلى البلدان العربيّة عامّة. وكان أكثر من يسافر إلى الوطن العربيّ رهبان وتجّار. ويبدو من الرسائل المكرّسة للرحلات المؤلّفة في تلك الفترة أنّ الحجّاج الروس قبل القيام بالأسفار كانوا يقرؤون الكتب عن البقاع الّتي كان من المفروض أن يزوروها وكانوا يحاولون أن يتابعوا إرشادات تلك الدلائل. وآنذاك أيضا كان بعض الرحّالة الروس يزورون المناطق المجاورة لفلسطين. ففي سنة 1561 مثلا صار التاجر فاسيليّ بوزدنياكوف أوّل روسيّ عبر صحراء سيناء على ظهر جمل يسير مع قافلة. ويتعجّب بوزدنياكوف من الفلاة التي شاهدها أوّل مرّة في حياته، حيث يشهد انّه تنعدم في الفلاة الأشجار والأعشاب والحيوانات وبنو آدم وأنّها مغطّاة كلّيا بالرمال.

وأيضا تجدر بالذكر رحلة تاجر روسيّ آخر فاسيلي غاغارى الذي كان متخصّصا في العلاقات التجاريّة مع بلدان الشرق. لقد انطلق مسافرا في سنة 1634 ورجع إلى روسيا في 1637. لقد عبر القوقاز وآسيا الصغرى، ثمّ طاف بسوريا وفلسطين ومصر والعراق. وبعد ذلك عاد إلى روسيا عبر مولدافيا وبلونيا. ومن المدن العربيّة أعجبته دمشق التي اعتبرها من أجمل مدن الدنيا. وقد قاسى كثيرا أثناء الرحلة من القدس إلى القاهرة ولاحظ أن البدو أثناء الأسفار الصحراويّة يحملون الماء في قرب من الجلد وذلك على ظهور الإبل وهو ما يعينهم على العطش في الفلاة. وعندما اقترب التاجر غاغارى من القاهرة أعجبته كثرة المنارات التي يُطلق عليها تسمية (الجرسيّات الإسلاميّة). وعندما اتّجه إلى الإسكندرية أدهشته خصوبة وادي النيل. والظاهرة الأخرى التي لفتت انتباهه هي المفارخ المنتشرة في الريف المصريّ. والطريف أنّه قد انتبه إلى نفس الظاهرة عالم الحيوانات والرحّالة الألمانيّ ألفريد بريم الذي كان يقيم في مصر والسودان في منتصف القرن التاسع عشر.

وفي سنة 1649 انطلق إلى الشرق العربيّ المهندس المعماريّ الروسيّ أرسيني سوخانوف. وكانت مهمّة رحلته تنطوي علي دراسة طقوس الكنائس المسيحيّة الشرقيّة والفنّ المعماريّ العربيّ المسيحيّ واقتناء المخطوطات المسيحيّة. ويصف سوخانوف بالتفصيل سفره في مصر التي وصل إليها بحرا من القسطنطينيّة. وأكيد أنّه أوّل رحّالة روسيّ انتبه إلى الآثار المصريّة القديمة، إذ يصف مسلّة الملكة كليوباترة في الإسكندريّة (وهي التي باعها محمّد عليّ فيما بعد إلى فرنسا وتزين حاليّا باريس) ويُلفت نظر القارئ إلى أنّها كانت منقوشة من الهيروهليفات والرسوم (يُسمّي سوخانوف المسلّة "بالعمود العجيب المربّع الشكل المقطوع من حجر واحد"). وعندما اقترب أرسيني سوخانوف من

القاهرة فإنه كان يركب "فلوكة" وقد شاهد "الأعمدة الفرعونيّة"، أي الأهرام. وأمّا نهر النيل فيخبرنا أنّه يسكن فيه (وحش شرس اسمه التمساح؛ إنّه يشبه حرذونا وحجمه كبير وقوّته عظيمة).

كما شهد ملتقى القرنين السابع عشر والثامن عشر، كما الربع الأوّل من القرن الثامن عشر انقلابا ثقافيّا جذريّا إلى جانب التغيّرات العميقة الأخرى في تأريخ روسيا، إذ تتزامن هذه الفترة مع عهد بطرس الأكبر. وإلى جانب الإصلاحات الأخرى قد تمّ تأسيس أكاديميّة العلوم في سانت بيترسبورغ ووُضعت أسس علم الاستشراق الروسيّ وقد باشر العلماء الروس بجمع واقتناء مختلف التحف الخاصّة بالحضارة العربيّة الإسلاميّة. وفي تلك الفترة بالذات حُقّقت لأوّل مرّة ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة الروسيّة. وبالرغم من أنّ روسيا كانت آنذاك من حين إلى آخر تجد نفسها في حالة الحرب مع الدولة العثمانيّة المسيطرة على أكبر جزء من الوطن العربيّ فإنّ الحجّاج الروس ظلوا يرحلون إلى الأراضي المقدّسة عبر مصر وسوريا. ويجب الاعتراف أننا لا نجد تقريبا شيئا جديدا في تقاريرهم عن الأسفار مقارنة بالفترة السابقة. ولكنّه يترتّب علينا أن نشير إلى استثناء واحد وذلك حياة وأسفار فاسيلي بارسكي (1701 – 1747). لقد كان مولده في أوكرانيا وكان راهبا تابعا للكنيسة الأرثوذكسية الأنطاكيّة وقضى نصف عمره في الرحلات في الشرق العربيّ. ربّما كان أوّل رحّالة روسيّ إلى الوطن العربيّ اهتمّ ودرجة كبيرة بالحياة اليوميّة للأهالي في البلدان العربيّة. فنجده مثلا يتعجب من كون العرب القاطنين في المنطقة بين ياقا وبيت المقدّس لا يسكنون في المنازل المستقرّة إنّما في الخيام. كما تُدهشه بساطة ملابسهم وأكلهم، كالخبز وزيت الزيتون، ويبدو له عجيبا بصورة خاصّة أنّهم لا يشربون الخمر أبدا، حتّى أنه يلومهم على ذلك. ويفسر ذلك بأن كرم العنب قليل الزراعة في أراضي فلسطين. ويبدو من ذلك أنّ بارسكي يجهل تحريم الخمر عند المسلمين. وفي مصر يلاحظ المسافر تعدّد أجناس سكّان مدنها، من عرب وأتراك، وهم أتباع نفس الدين الإسلاميّ. وإلى جانبهم عرب ويونانيّون وأرثوذكس وأيضا أرمن كثيرون. ويستطرد قائلا: "ويتواجد هناك جنس من النصارى، وهم هراطقة (أي مرتدّون)، ويلقّبون بالأقباط، ولهم قدر عظيم في مصر". وخلاصة القول أن كتاب رحلة بارسكي يتمتّع باهتمام القرّاء الروس الوافر وظل ذلك علي مدى النصف الثاني من القرن الثامن عشر والرُبع الأوّل من القرن التاسع عشر، إذ لم تمنع درجة معيّنة من السذاجة في معالجة الحياة العربيّة من ظهور عدّة طبعات خلال تلك الفترة. وجدير بالذكر أنّ أولى طبعة لكتاب رحلة بارسكي تحقّقت علي نفقة غريغوري باتيومكين، وهو قطب فحول رجالات الدولة في أيّام القيصرة العظيمة والملكة الحكيمة كاترينة الثانية (1762 – 1796). وهذا بالذات يُبرهن على أنّ عصرها كان موضع الانعطاف الحاسم فيما يخصّ بموقف الدولة الروسيّة من الإسلام والمسلمين والثقافة العربيّة الإسلاميّة. ذلك أنّها قرّرت بأن يصبح الدين الإسلاميّ ديانة مرعيّة من طرف الدولة الروسيّة. وقد أُنشئ نظام ما يُسمى بالهيآت الإداريّة الإسلاميّة الروحيّة القائمة في حقيقة الأمر في روسيا الاتّحاديّة إلى أيّامنا هذه. بالإضافة إلى هذا فقد أمرت الملكة بتطوير القسم العربيّ للمطبعة الأكاديميّة (أنشئ سنة 1758) ونشر عدد وافٍ من نسخ القرآن الكريم، وذلك من أجل رعاياها المسلمين.)

وبما أنّ الدولة العثمانيّة كانت من أهمّ خصوم روسيا مالت الحكومة الروسيّة إلى تأييد رغبة بعض الحكّام العرب المحلّيين في التحرر من السيطرة العثمانيّة. وفي سنة 1768 نشبت الحرب الروسيّة العثمانيّة التي استمرت حتى سنة 1774. وفي هذه الظروف أعلن حاكم مصر المملوكيّ علي باي استقلاله عن الباب العالي وتلقّب بسلطان مصر والبحرين (يعني البحر الأبيض المتوسّط والبحر الأحمر). وآنذاك كانت تتواجد في بحر إيجه سفينة روسيّة بقيادة ناصر كاترينة الثانية الآخر الكونت أليكسي أورلوف. فقد حث عليّ باي مندوبيه إلى الأميرال الروسيّ على التنسيق بخصوص النضال المشترك ضدّ الأتراك. لقد شنّ عليّ باي بعد ذلك هجوما علي العثمانيّين في بلاد الشام بالتحالف مع

أحد المشايخ المحليّين داهر، ولكنّ الحظّ قد خانه فانهزم والتجأ إلي مأوى الشيخ داهر في عكّا. فطلب الأميران النجدة من الروس الذين بعثوا بسفينة الأميرال ريزو إلى الساحل اللبنانيّ حيث استولى مشاة البحريّة الروسيّة على بيروت ورفع الحصار العثمانيّ عن صيدا.

وعُقدت حينئذ الهدنة العثمانيّة الروسيّة، وانسحبت السفينة الروسيّة وأُستُعيدت السيطرة التركيّة علي بيروت. وفي ذلك الوقت تقريبا بعث الكونت أورلوف إلى مصر وفدا من أصحابه مع كمّيّة كبيرة من الأسلحة والذخيرة الحربيّة. ولم يُسعف ذلك مع الأسف عليّ باي حيث انهزم انهزاما نهائيّا على يد أمراء المماليك المعادين له وتوفي بالقاهرة بسرعة جراء الجروح التي أُصيب بها في المعركة، وذلك في ربيع سنة 1773. وفي صيف 1773، وإثر رفع الهدنة الروسيّة العثمانيّة ظهرت سفينة روسيّة أخرى قبالة السواحل السوريّة واللبنانيّة، وذلك تحت قيادة الأميرال كوجوخوف الذي حاصر بيروت واستولى عليها بعد ثلاثة أشهر. وبعد فترة وجيزة إثر ذلك تحالف الشيخ اللبنانيّ يوسف الشهاب مع الروس (وكان قبل ذلك يناصر العثمانيّين) وهو الذي وجّه إلى القيصرة الروسيّة رجاء بجعله تابعا لروسيّا وإقامة الحماية الروسيّة على لبنان. ولكن بعد عقد الصلح بين الدولتين الكبيرتين في أواخر نفس السنة فقد رُفض هذا الرجاء.

وعلى كلّ حال كانت هذه أولى تجربة للتعاون العربيّ الروسيّ التي وردت في ظلال التعرّف الروسيّ المعيّن على أحوال العرب وأوطانهم.

ثمّ حان القرن التاسع عشر وقد بشّر بعهد جديد في الاهتمام المتبادل العربيّ الروسيّ. وعلى كلّ حال فإنّ الذي كان قد رسُخ من قبلُ من العلاقات والروابط صار قاعدة متينة للتعاون الذي بلغ ذروته في القرن العشرين وإن شاء الله سيستمرّ ويكتسب أبعادا جديدة في القرن الحاضر.